

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاصٌ بالعصر العباسي الأول ، وكان طبيعياً أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التي فَرَضَتْ نفسها على الأدباء العباسيين فَرَضاً ، سواء الحياة السياسية وما كان يَجْرِي فيها من نُظُم وظروف وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشِيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق في الحجون وزندقة وزهد ونسك . أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً ، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفًى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحيناً يجمع بين الرقة والعدوبة . وكان تأثيرهم عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تُحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور . وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية . وفتحوا صفحة لم تكن تَحْطُرُ لأسلافهم على بال ، هي صفحة الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانية منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأتماصاً من القوافي كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر في العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولتُ أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده ، فأما بشار فسَنَّ للشعراء أن يزواجوا مزوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسواه الحضارية والاجتماعية والعقلية. وكان تأثير هذه السيول في أبي نواس أشد عمقاً وأكثر حدّة، فتعمّق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه في اللهو والمجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنوع واسع في أشعار الزهد والمواظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكّمة الشائخة مع التدقيق الشديد في المعاني والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً ، بحيث أصبح معروضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعاني والأخيلة البارعة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور في تطور الشعر في العصر تطوراً يتفاوت قوة وضعفاً ، مما دفعني إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووضعهم في فصائل متقابلة ، والتمسّ لكل فصيلة صفوة من يمثلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والمجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلت أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقّفه الوعّاظ والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقصص وقصّاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونموّه ورقوا به رقيّاً بعيداً . وازدهر النثر الديواني وكلّ ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحجّر الكتّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء والتي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبّج نقرّ منهم رسائل أدبية خالصة حلّلوها فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً ، وحيناً حاكوا قصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُنت برسم شخصيات أعلام الكتّاب في العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية،

وكتتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون في كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرع أحمد بن يوسف في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مضمناً على أساليبه كل ما يستطيع من صور التنميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنيق والاقتصاد المسرف في التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأنيق في كتاباته ، غير أنه كان يُعنى بحُسْنِ القول وجزالة اللفظ ورصانته . والله أسأل أن يُلهمني السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م